تقديم

أ.د. مصطفى رجب

تتناول هذه الدراسة كتاب "الإشارات الإلهية" تناولاً لغويًا على مستويين هما : النحو والدلالة ، وقد كان من أسباب اختيار هذا الموضوع أن هذا الكتاب يُعَدُّ علامة بارزة في الأدب الصوفيّ ، كما يُعدُّ واحدًا من أعمق وأدق كتب أبي حيان التوحيدي على المستوى الفكري، والتميز الأسلوبي ، والتمكن في الأداء . والتوحيدي – كما قد يعلم القارئ الكريم – واحدٌ من أكثر الشخصيات التراثية إشكالاً ومجلبة للحيرة، فقد أثارت شخصيته، وأفكاره، وأعماله جدلاً كبيرًا بين القدماء وبين المحدثين.

ومن أسباب اختيار هذا الموضوع أيضًا أن التوحيدي صاحب هذا الكتاب يُعدُّ واحدًا من أبرع كُتّاب العربية في فترة نضجها الثقافي، وتميزها الحضاري.

وتهدف هذه الدراسة إلى 'براز جماليات النثر العربي ، وكيف كان للصوفية قصب السبق في تجلية آفاق العطاء الثري للغة الضاد وتراكيبها المتنوعة من خلال تحليل كتاب "الإشارات الإلهية" تحليلاً لغويًا على مستويي النحو والدلالة ، بهدف إدراك السمات اللغوية على المستوى النحوي التركيبي ، والسمات اللغوية على المستوى الدلالي ، وما تتميز به هذه السمات من خصوصية في الأداء عند التوحيدي ، كما تهدف الدراسة أيضًا إلى إدراك صور التماسك النصي في "الإشارات الإلهية".

وقد التزم ابننا الباحث الجاد أيمن عبد اللطيف في هذه الدراسة المنهج الوصفي منهجًا لها ، وهو منهج مناسب لهذه النوعية من الدراسات اللغوية ؛ فهو يمتاز بأنه ينقطع للنص دون التشتت وراء أغراض أخرى، فهدفه بنية النص ، وقد حقق هذا المنهج تطورًا كبيرًا في القرن العشرين الذي شهد مدارس لغوية وصفية متعددة ، وقد نشأت هذه المدارس جميعها تحت فكرة

أساسية هي البنيوية ، واستطاعت هذه الدراسات على اختلاف اتجاهاتها أن تطور من أدائها ، وأن تولي جانبًا من همومها النظرية والتطبيقية لدراسة العمل الأدبي باعتباره نمطًا متميزًا من أنماط التعبير، والاستعمال اللغوي.

وقد واجهت ابننا أيمن عبد اللطيف في هذه الدراسة صعوبات عديدة منها أن هذه الدراسة تطبيقية تحليلية، وهذا أدى لندرة المصادر، والمراجع التي تقوم عليها الدراسة ، كما كان لتميز بنية اللغة في كتاب "الإشارات الإلهية" بالتنوع التركيبي ، والثراء الدلالي أثره الكبير في الحاجة إلى المزيد من الجهد في البحث والدراسة والاستقصاء .

وقد اعتمد ابننا الباحث أيمن عبد اللطيف في هذه الدراسة في إيراد نصوص "الإشارات الإلهية" على تحقيق الدكتورة وداد القاضي للكتاب لتميزه بزيادة في الشرح والضبط على تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي للكتاب نفسه.

وقد عُني ابننا أيمن عبد اللطيف بدراسة المستوى التركيبي في كتاب "الإشارات الإلهية"، واشتمل على خمسة مباحث.

الأول: كان تمهيدًا لأهمية الدراسات اللغوية في فهم النصوص وكشفها.

والمبحث الثاني: تناول الجملة الاسمية والجملة الفعلية في الكتاب، وانتهى هذا المبحث إلى غلبة الجملة الفعلية عند التوحيدي على الجملة الاسمية، وانتهى المبحث أيضًا لغلبة الفعل الماضي على المضارع والأمر، وتم تحليل هذه النتائج.

وتناول المبحث الثالث "النداء" في الكتاب من حيث البنية التركيبية التي تنوعت وتعددت أشكالها، ومن حيث دلالات النداء التي تعددت وخرجت عن معناها الحقيقي إلى معانٍ جديدة تُستفاد من السياق والقرائن.

وتناول المبحث الرابع: الاستفهام وميزاته التركيبية والدلالية.

أما المبحث الخامس والأخير: فقد تناول الأمر وميزاته التركيبية والدلالية أيضًا.

اختص الفصل الثاني من البحث بدراسة طرق ووسائل الربط في الكتاب، واشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: عُني ببيان أهمية الربط في بنية اللغة، فالنص بنية مركبة متماسكة، حيث يؤدي الربط إلى تحقيق التماسك والترابط بين الكلمات كما يؤدي لحصول الخفة والإيجاز وأمن اللبس.

والمبحث الثاني: اختص بدراسة الربط بالإحالة، وتعريف العنصر الإحالي بأنه مكون يعوض مكونًا آخر، وهو نوع من الربط يكون عن طريق إعادة الذكر، أو عن طريق الضمير أو عن طريق اسم الإشارة، وتنقسم الإحالة إلى قسمين، إحالة معجمية، وإحالة نصية.

المبحث الثالث: اختص بدراسة الربط بالأداة، مثل: حروف العطف، وحروف الجر، وأدوات الشرط، وغيرها، والفرق بين الربط بالإحالة والربط بالأداة أن وظيفة الربط بالأداة تلخيص معنى نحوي كالعطف، والشرط، والاستثناء، أما الربط بالإحالة فهو عملية تعليق وائتلاف.

اختص الفصل الثالث: بدراسة المستوى الدلالي في الكتاب، وانقسم إلى ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: عُني بالتعريف بعلم الدلالة وبعض القضايا المرتبطة به كعلاقة الدال بمدلوله، وأنواع الدلالات، وقضية التغير الدلالي وأشكاله ومميزاته، ثم تناول نظريات دراسة المعنى، "كالنظرية السياقية"، "ونظرية الحقول الدلالية"، "ونظرية التحليل التكويني"، وقد اعتمد هذا المبحث نظرية الحقول الدلالية لتكون هي النظرية التي يقوم عليها التحليل الدلالي للكتاب لما لها من ميزات خاصة تفيد الدراسة.

المبحث الثاني من هذا الفصل: عُني بدراسة ألفاظ الحياة الصوفية في الكتاب من خلال نظرية الحقول الدلالية، وتم تقسيم ألفاظ الحياة الصوفية في الكتاب إلى ثلاثة مجالات دلالية فرعية.

- تناول المجال الدلالي الفرعي الأول: الألفاظ الخاصة بمقامات الصوفية: كالصبر، والشكر، والخوف، والتوكل، والتوحيد.
- وتناول المجال الدلالي الفرعي الثاني: الألفاظ الدالة على المصطلحات الصوفية، كالمعرفة، الإرادة، الإشارة، القبض والبسط.

- وتناول المجال الدلالي الفرعي الثالث: الألفاظ الدالة على قوى الإنسان وعيوبها وفضائلها، كالنفس، والروح، والقلب، والسر، والعقل.

المبحث الثالث: عُني بدراسة العلاقات الدلالية بين ألفاظ الحياة الصوفية، كالترادف، والتقابل، والمجاز،... الخ، وهذه العلاقات الدلالية تجمع بين ألفاظ المجالات الدلالية الفرعية الثلاثة لتكون في النهاية المجال الدلالي الرئيسي الخاص بألفاظ الحياة الصوفية.

وفي نهاية الدراسة، واحترازًا لوصف الدراسة بالنزعة الجزئية في التناول، فقد توفر ابننا أيمن عبد اللطيف على تحليل الرسالة الحادية والثلاثين من رسائل "الإشارات الإلهية" تحليلاً لغويًا على المستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، وأشكال الربط في الرسالة.

وقد استطاع أيمن عبد اللطيف التوصل إلى نتائج طيبة من خلال الجهد العلمي المتميز الذي بذله مما يجعلنا على ثقة بأن هذا الكتاب سيسد ثغرة حقيقية في مكتبة الدراسات اللغوية العربية .

نسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يجعل منه علما ينتفع به كاتبه وقارئه ، إنه – سبحانه – سميع مجيب

أ.د. مصطفى رجب

سوهاج في ذي القعدة الحرام ١٤٢٨هـ – نوفمبر ٢٠٠٧ م

التـــمهـــيـــد:

الشخصية الأسلوبية مفهومها وتجلياتها

تمهيد:

الشخصية الأسلوبية: مفهومها وتجلياتها:

إن هناك تقاربا يحدث بين دارسي النصوص، ونقادها من جانب، وبعض اللغويين الذين يجعلون من الأدب مجالا لدراستهم من جانب آخر من خلال ما يعرف بالدراسة الأسلوبية "فالأسلوب من أهم المقولات التي توحد بين علمي اللغة والأدب"[١] ودراسة الأسلوب ينبغي أن تتم في المنطقة المشتركة بينهما.

لقد تناولت الدراسات الحديثة مفهوم الأسلوب من زوايا متعددة في محاولة للوصول إلى مفهوم محدد "يمكن على أساسه أن تقوم دراسة موسعة تستوعب أنواع الأداء في مستوياتها المختلفة"[٢] إلا أننا لا نجد تعريفا واحدا للأسلوب يتمتع بالقدرة الكاملة على الإقناع، ولا نظرية يجمع عليها الدارسون في تناوله. فمن الدارسين من اهتم بالعلاقة بين المنشئ والنص "وراح يلتمس مفاتيح الأسلوب في شخصية المنشئ وانعكاس ذلك في أسلوب اختياراته حال ممارسة الإبداع الفني"[٣]، ومن الدارسين من اهتم بالعلاقة بين النص والمتلقي فراح يلتمس مفاتيح الأسلوب في ردود الأفعال، والاستجابة التي يبديها القارئ أو السامع حيال المنبهات الأسلوبية الكامنة في النص،ومن ثمَّ رأى الأسلوب قوى ضاغطة على حساسية المتلقي"[٤] أما أنصار الموضوعية في البحث فقد أصروا على عزل طرفي عملية الاتصال وهما المنشئ والمتلقي ورأوا وجوب التماس مفاتيح الأسلوب في وصف النص وصفا لغويا"[٥] وحجتهم في ذلك أن العمل الأدبي عبارة عن مادة لغوية، فكل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة، ومن ثمَّ يمكن تعريف الأسلوب بأنه "اختيار choice أو انتقاء selection يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إيثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة،

١- علم الأسلوب، د / صلاح فضل، القاهرة، مؤسسة مختار للنشر، ١٩٩٢، ص٨٣.

٢- بين البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤، ص ١٥.

٣- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، د/ سعد مصلوح، القاهرة، دار الفكر العربي، ص ٢٩.

٤- المرجع السابق، ص ٢٩.

٥- المرجع السابق، ص ٢٩.

ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تشـــــكل أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين"[١].

والقول بأن الأسلوب اختيار أو انتقاء يوافق الطبيعة الإبداعية وما تشتمل عليه من سلسلة من الاختيارات، ولكن لا بد من التفريق بين نوعين من الاختيار، فليس كل اختيار يقوم به المنشئ أسلوبيا.

النوع الأول:

اختيار يقتضيه الموقف وهو اختيار نفعي "ويكون بين سمات مختلفة تعني دلالات مختلفة"[٢]

والثاني: اختيار نحوي أسلوبي تتحكم فيه مقتضيات التعبير الخالصة "ويكون بين سمات مختلفة تعني دلالة واحدة"[٣].

والحقيقة أن معالجة الأسلوب على أنه اختيار ليست بالأمر السهل، وذلك لأن التمييز بين السمات الصياغية التي تعني دلالة واحدة، وبين السمات الصياغية التي تعني دلالات مختلفة أمرٌ يبدو فى كثير من الأحوال صعبا.

ويركز الاتجاه التوليدي في دراسة الأسلوب على الطابع الشخصي للأساليب "باعتبارها تمثيلا للملامح المميزة للكتّاب، وتتصل بذلك أيضا مجموعة التعريفات التي تنظر إلى الأسلوب باعتباره اختيارا لغويا بين بدائل متعددة إذ إن الاختيار سرعان ما يحمل طابع صاحبه ويشي بشخصيته ويشير إلى خواصه"[٤] فالأسلوب عند أصحاب هذا الاتجاه متعلق بصاحبه "بماضي صاحبه وطفولته، وطقوسه الخاصة، وبيولوجيته، إنه – أي الأسلوب – الكلام المكتفي بنفسه، المعزول الذي يغرق في مثولوجية الأديب الشخصية الخفية"[٥].

١- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ص ٢٣.

٢- المرجع السابق، ص ٢٥.

٣- المرجع السابق، ص ٢٥.

٤- مناهج النقد المعاصر، د/ صلاح فضل، أفريقيا للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٢ م، ص ٨٩.

٥- مجلة فصول، مقال بعنوان الأسلوبية الذاتية أو النشوئية، عبد الله حوله، المجلد الخامس – العدد الأول، ١٩٨٤، أكتوبر.

لقد تعددت الخلافات بين الباحثين لتحديد مفهوم الأسلوب نتيجة "لتعدد الوجهات النظرية حول مفهوم الأسلوب وطرائق توصيفه"[١] والنتيجة التي نخلص إليها من كل ذلك هي أن مفهوم الأسلوب ليس بسيطا ولا سهلا يمكننا أن نتبينه بدون عناء بل يحتاج إلى جهد كبير في مقاربة النصوص، ومحاولة الوصول إلى ميزاتها الخاصة كما نلاحظ أن "هذا المفهوم ذاته – أي مفهوم الأسلوب يختلف في طبيعة تكوينه من جنس أدبي إلى آخر لارتباطه بنظريات الشعرية وتقنيات التعبير الخاصة بكل جنس أدبي"[٢].

وعلى الرغم من تعدد الآراء والتعريفات الخاصة بالأسلوب إلا أن هناك قاسما مشتركا بين هذه الآراء كلها "، وهو اعتبار الأسلوب استعمالا خاصا للغة يقوم على استخدام عدد من الإمكانات والاحتمالات المتاحة والتأكيد عليها في مقابل إمكانات واحتمالات أخرى"[٣].

وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى القول بأن اللغة ثوب الفكرة، أما الأسلوب فهو فصال الثوب وطرازه الخاص.

والقارئ المتمرس يستطيع أن يميز بين مختلف الأساليب، وربما يستطيع أن ينسب نصا من النصوص إلى كاتب بعينه على غير سابق عهد بقراءة النص دون أن يخطئ بل دون أن يتردد أحيانا وهذا التمييز سلاحه الحدس والذوق، وكلها حاصل خبرات سابقة متراكمة مع أنواع مختلفة من أنماط الأساليب.

وقد كان أبو حيان التوحيدي صاحب شخصية أسلوبية واضحة، حيث امتاز بثقافة واسعة يسرت له أن يغذي أدبه بألوان من العلوم، فلم يكن أدبه مثل أدب معاصريه من الكتاب تعبيرا صرفا عن عاطفته الفردية، وإنما كان غنيا بثقافات شتى.

١- مناهج النقد المعاصر، ص ٨٩.

٢- المرجع السابق، ص ٨٩.

٣- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ص ٣٣.

لقد كان التوحيدي بصيرا بما يتطلب التعبير الفني من دقة وجهد فهو صاحب حس لغوي دقيق في وضع الكلمات المواضع الملائمة لها "مع ملاحظة قرائها بما بعدها، وما قبلها، وانتهاءً بأدائها للمعنى المراد الذي يصبو إليه"[١].

ومثلما اهتم التوحيدي بالكلمة التي هي الأساس الأول لبناء العبارة، اهتم كذلك بانتخاب الجملة لأدبه من حيث صياغتها وتركيبها، ويغلب على أبي حيان التوحيدي "إثارة الإطناب سواءً أكان بالكلمات المترادفة التي تؤدي معنى واحدا،أو معاني جد متقاربة، أم يكرر المعنى بعبارة مغايرة"[٢].

وقد حرص التوحيدي على هندسة الجمل، فبرع في التنغيم الموسيقي لها وذلك "بتقسيمها إلى فقرات قصار متناسبة الطول يكثر فيها الازدواج، ليكون أثرها على السمع وفي النفس أشبه بالشعر"[٣]، كما طوع التوحيدي النثر للتعبير عن المعاني العاطفية التي كانت مجالا للشعر وحده "كالمدح والهجاء والوصف وكانت وسيلته إلى ذلك تقسيم الجمل، والازدواج، والسجع، والخيال، والمحسنات"[٤].

كما عمد التوحيدي إلى استخدام التضاد بكثرة بغرض زيادة الأفكار وضوحا وقوة لا ليتلاعب باللفظ.

" فما أشبهه بالمصور الحاذق الذي يستطيع أن يوزع الألوان على لوحته فتزيدها بهجة، وتظهر الأبعاد الفنية والارتباطات الهندسية، والعلائق الجمالية للوحة"[٥].

١- أبو حيان التوحيدي وجهوده الأدبية والفنية، عبد الواحد حسن الشيخ، ط ١، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠، ص ٣٢١

٢- أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، القاهرة: نهضة مصر، د.ت، الجزء الثاني، ص ١٤.

٣- المرجع السابق، ص ١١٧.

٤- المرجع السابق، ص ٢٢.

٥- أبو حيان التوحيدي وجهوده الأدبية والفنية، ص ٣٢٢.

المبحث الأول

ترجمة موجزة لأبي حيان التوحيدي

وردت ترجمات عديدة عن أبي حيان التوحيدي في كتب التراث[١] وكان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) قصب السبق في تقديم ترجمة وافية عن أبي حيان التوحيدي، حيث قال:

"هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي"[٢] وذكر ابن خلكان، ت (٦٨١ هـ) في لقب التوحيدي: "بفتح التاء المثناة من فوقها، وسكون الواو وكسر الحاء المهملة، وسكون الياء المثناة من تحتها ومن بعدها دال مهملة، و لم أر أحدا فيمن وضع كتب الأنساب تعرض إلى هذه النسبة لا السمعاني ولا غيره، ولكن يقال أن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد وهو نوع من التمر"[٣].

وقد ذكر السيوطي ذلك فقال: "أبو حيان التوحيدي نسبة إلى التوحيد نوع من التمر، قال شيخ الإسلام بن حجر: "يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذي هو الدين فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد"[٤].

١- ترجمة أبي حيان التوحيدي في:

* معجم الأدباء ياقوت الحموي، ت ٦٢٦ هـ، تحقيق: إحسان عباس، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م، ج ٥ ص ١٩٢٣.
* وفيات الأعيان لابن خلكان، ت٦٨١ هـ، بيروت، دار صادر، د.ت، المجلد الخامس، ص ١١٢، ١١٣.
* تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، ت ٦٨١ هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، الجزء ٢، قسم ١، ص ٢٢٣.
* سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٤٨، ت شعيب الأرنؤوط – محمد نعيم العرقسوس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١١، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م، ص ١١٩.
* طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين نصر بن عبد الوهاب السبكي، ت ٧٧١ هـ تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط ١، عيسى الحلبي وشركاه، ص ٢٥٦.
* لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ، ط ٣ بيروت، مؤسسة الأعلمي للمنشورات، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م ج ٤، ص ٢٥٨.
* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، المجلد الثاني، ص ١٩٠.

٢- معجم الأدباء لياقوت الحموي، ص ١٩٢٣.

٣- وفيات الأعيان لابن خلكان، ص ١١٢، ١١٣.

٤- بغية الوعاة للسيوطي، المجلد الثاني، ص ١٩٠.

وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام أن كلمة "التوحيدي" مشتقة من معنى التوحيد، والتنزيه لله – سبحانه وتعالى – حين قال: "أعتقد بعد هذه النصوص كلها من واقع كتبه، وفى ثنايا كتابته أن التسمية بالتوحيدي مؤسسة على هذه اللفظة التي شاع استعمالها عنده لفظا، وحققها فعلا فى تصرفاته فانطبق القول على الفعل فسمي بها"[١].

وقد سار فى الاتجاه نفسه أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة حيث قال: "استهلالاته – يعني أبا حيان التوحيدي – لكتبه التي تفيض إيمانا، وتمتلئ توحيدا بحيث يمكن أن يكون ذلك هو السبب في تلقيبه بالتوحيدي"[٢].

وقد لاحظت أن كل من قام ببيان سبب تلقيب أبي حيان بالتوحيدي استخدم ألفاظ الاحتمال والترجيح، حيث قال ابن خلكان: "يقال إن أباه كان يبيع التوحيد "، وقال السيوطي ناقلا عن ابن حجر العسقلاني: "يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذي هو الدين "، وهو قول لا أميل إليه ولا أرجحه، لأن أبا حيان لم يكن ذلك العلم البارز فى أهل الاعتزال حتى يلقب بالتوحيدي، ولو كان هذا اللقب نسبة إلى التوحيد الذي هو الدين لكان هناك من هو أولى من أبي حيان بهذا اللقب.

وأما رأي الأستاذ أحمد أمين والدكتور مصطفى الشكعة وإن كان رأيا له وجاهته فإنني لا أرجحه، وذلك لأن وجود ألفاظ التوحيد والإيمان والتنزيه لله:– سبحانه وتعالى – هو من سمات الأدب الصوفي بصفة عامة عبر العصور فوجود هذه الألفاظ والعبارات عند التوحيدي لا تعد ميزة انفرد بها.

والذي يرجحه الباحث أن التوحيدي نسبة إلى التوحيد – نوع من التمر – والتوحيد الذي هو ضرب من التمر شديد الحلاوة هو الذي عناه المتنبي في قوله في داليته:

يترشفن من فمي رشفات... هن فيه أحلى من التوحيد[٣]

١– ظهر الإسلام، أحمد أمين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٢، ج ٢، ص ٤٣.

٢– معالم الحضارة الإسلامية، د/ مصطفى الشكعة، ط٥–بيروت: دار العلم للملايين.١٩٨٧م. ص ١٨٢.

٣– ديوان المتنبي، ت د/ عبد المنعم خفاجي – سعيد جودة السحار – عبد العزيز شرف، القاهرة، مكتبة مصر، بدون عام نشر، ص ١١١.

وذلك لأن صاحب هذا الرأي هو ابن خلكان وهو من المصادر القريبة من أبي حيان التوحيدي وعصره وحياته بالمقارنة بغيره من المصادر التي تحدثت عنه، وليس هناك ما يمنع أن يكون والده قد باع "التوحيد" واشتهر به ومن ثم اشتهر به ابنه من بعده.

كما اختلف دارسو التوحيدي فى تحديد سنة ميلاده فذكر حسن السندوبي أنه ولد فى سنة ٣١٢ هـ معتمدا على الرسالة التي كتبها للقاضي أبي سهل معتذرا له فيها عن إحراقه لكتبه وأرخها سنة ٤٠٠ هـ وذكر فيها "إني فى عشر التسعين"[١]

يقول الدكتور إبراهيم الكيلاني[٢] إن كتاب المقابسات الذي ألفه سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره يومذاك خمسين عاما بدليل قوله: وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى الخمسين حجة وقد أضاع أكثرها وقصر فى باقيها دليل على أنه ولد سنة ٣١٠هـ.

أما الدكتور ذكي مبارك فقد أعفى نفسه من مشقة البحث وراء عام ولد فيه التوحيدي فقال: "لا تسأل متى ولد ولا أين فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة"[٣]

وأعتقد أن تحديد زمن دقيق لميلاد التوحيدي أمر من الصعوبة بمكان حتى تلك التواريخ التي ذكرت فى كتب أبي حيان التوحيدي لا تكفي لتحديد زمن ميلاده؛ وذلك لأن مؤلفي ذلك العصر ومنهم التوحيدي كانوا يؤلفون كتبهم على فترات طويلة من الزمن، وما يذكر من تواريخ داخل هذه المؤلفات لا يمكن اعتباره سندا تاريخيا؛ لأنها لا تتفق تماما مع الواقع وقد اعتمد كل من السندوبي وإبراهيم الكيلاني على هذه التواريخ فى تحديد العام الذي ولد فيه التوحيدي.

كما اختلف الدارسون أيضا فى تحديد السنة التي توفي فيها التوحيدي، وذلك اعتمادا على آراء المترجمين، فقد ذكر السيوطي أنه "مات فى حدود الثمانين والثلاثمائة"[٤] وهو أمر لا أرجحه وذلك لأن أبا حيان كتب رسالة إلى القاضي أبي سهل يعتذر له فيها عن إحراقه لكتبه عام ٤٠٠ هـ. وقال الذهبي: "قد سمع منه أبو

١- المقابسات، للتوحيدي، ت حسن السندوبي، ط ٢، الكويت، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٨.

٢- أبو حيان التوحيدي، إبراهيم الكيلاني، ط٤، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص ١٢.

٣- النثر الفني فى القرن الرابع الهجري، د/ ذكي مبارك، بيروت، دار الجيل، د.ت، ص ٣٥١.

٤- بغية الوعاة، ص ١٩١.

سعد عبد الرحمن بن ممجة الأصبهاني، وذلك سنة أربعمائة وهو آخر العهد به[١] أما القزويني فذهب إلى أنه توفي سنة ٤١٤ هـ حيث وجد ذلك مكتوبا على قبره فى شيراز، وهو ما يرجحه الباحث وفقا للرواية التي رواها أبو العباس أحمد زركوب عن أبيه[٢].

وامتد الخلاف إلى أصل أبي حيان التوحيدي، فعبارات المترجمين بداية من ياقوت الحموي الذي قال عنه: "شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي "تدل على أنه فارسي الأصل، وقد تناقل القدماء والمحدثون هذا الكلام، فذهب السيوطي إلى أنه فارسي، وذهب الدكتور ذكي مبارك إلى أنه "فارسي الأصل"[٣] وكذلك حسن السندوبي فى مقدمته لكتاب "المقابسات" الذي قام بتحقيقه ولكن الأستاذ محمد كرد على[٤] يخالف هذا الرأي فقد ذهب إلى أن أبا حيان التوحيدي عربي الأصل، واستند فى ذلك إلى مجموعة من الأدلة منها اسم أبي حيان التوحيدي، واسم والده وجده ليس فيها أسماء فارسية، كما أن أبا حيان التوحيدي لم يكن يعرف اللغة الفارسية ولا يوجد فى كتبه ما يدل على أنه فارسي، كما لم يذكر عنه تعصبه للفارسية فى فترة انتشر فيها الافتخار بالفارسية، وكانت حركة الشعوبية فى أوج نشاطها بل على العكس من ذلك عرف عنه حبه للعربية، وتعصبه لها ضد الفارسية.

وأميل إلى موافقة الأستاذ محمد كرد على فيما ذهب إليه من عروبة أبي حيان التوحيدي وأرى أن السبب فيمَ ذكره ياقوت.عن أبي حيان التوحيدي من أنه فارسي، وتناقل الجميع بعد ذلك عنه هذا القول هو أن أبا حيان التوحيدي عاش فترة كبيرة من حياته متنقلا فى هذه البلاد وليس فى ذلك ما يمنع أن يكون عربيا خالصا مع انعدام وجود أي دليل على أنه فارسي، وقد ورد فى تلقيبه بالتوحيدي على لسان

١- سير أعلام النبلاء، ص ١١٩.

٢- أبو حيان التوحيدي أحمد الحوفي.ص ٢٥.

٣- النثر الفني، ص ٣٥١.

٤- أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ص ٢٦-٢٨.

ياقوت نفسه أن والده كان يبيع "التوحيد" بالعراق وهو ما يدل على أنه نشأ بالعراق.

وإذا تخطينا مرحلة الحديث عن سنة ميلاد التوحيدي وأصله، وعن وفاته إلى مكانته نعرف أن التوحيدي أحد علمائنا الموسوعيين.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: "واحد من ألمع ثمرات الفكر الإسلامي، وأكثرها نضوجا فهو صاحب عقلية من أكثر العقليات الإسلامية خصوبة، وعطاء، وتفجرا بالنفيس من القول والسديد من الرأي والوفير من الإنتاج والسخي من العطاء"[١] كما يعد التوحيدي مرآة ناصعة لثقافة عصره التي قطف ثمارها الفلسفية والصوفية، والبلاغية، والإسلامية.

لقد حصّل أبو حيان ثقافته من تلك الكتب التي قرأها فى مكتبات بغداد، ومن الكتب التي كان ينسخها وتنوعت مصادر ثقافته "فأخذ الحديث عن أبي بكر الشافعي، وأبي سعيد السيرافي، وجعفر الخُلدي ولعله أخذ عنه التصوف[٢] وأخذ الفقه عن "أبي حامد المروزي"[٣] وأخذ اللغة والبلاغة عن الرُّماني.قال الذهبي: "وكان من تلامذة "على بن أبى عيسى الرماني"[٤]: وكذلك عن أبى سعيد السيرافي وهو شديد الإعجاب به" كما درس الفلسفة على يد أبى ذكريا يحيى بن عدى المنطقي ٣٦١ هـ ، وقرأ فى بغداد على أبى سليمان المنطقي كتاب النفس لأرسطو سنة ٣٧١هـ"[٥].

ولم يكن غريبا بعد ذلك كله أن تتعدد مؤلفات أبى حيان التوحيدى لتشمل أغلب فنون المعرفة الإسلامية، وقد ذكر لنا ياقوت الحموي طائفة من تلك المؤلفات القيمة مثل "كتاب رسالة الصديق والصداقة – كتاب الرد على ابن جنى في شعر المتنبي – كتاب الإمتاع والمؤانسة جزءان – كتاب الإشارات الإلهية جزءان – كتاب

١- معالم الحضارة الإسلامية، ص ١٨٣.

٢- طبقات الشافعية، ص ٢٥٦.

٣- المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٤- سير أعلام النبلاء، ص ١١٧.

٥- أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ص ٣٠.

الزلفة جزء – كتاب المقابسة-كتاب رياض العارفين – كتاب تقريظ الجاحظ – كتاب ذم الوزيرين – كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي – كتاب الرسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة – كتاب الرسالة البغدادية – كتاب الرسالة فى أخبار الصوفية – كتاب الرسالة الصوفية – أيضا كتاب الرسالة فى الحنين إلى الأوطان – كتاب البصائر،وهو عشر مجلدات وكل مجلد له فاتحة وخاتمة.كتاب المحاضرات والمناظرات"[١] ولم يذكر ياقوت الحموي كتاب الهوامل والشوامل وهو شركة بينه وبين مسكويه.

ويحدثنا ياقوت الحموي عن صفات أبى حيان فيقول: "صوفي السمت والهيئة وكان يتأله" ثم يقول: "كان متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة، والشعر والأدب، والفقه والكلام على رأى المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك مسلكه، ويتمنى أن ينتظم فى سلكه: وهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء"[٢].

لقد كان ياقوت الحموي أمينا فى عرض صفات أبى حيان فلم يكتف بعرض محاسنه بل ذكر مثالبه فقال: "سخيف اللسان قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا مثيل له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم"[٣] ثم قال: "وكان مع ذلك محدودا محارفا يتشكى صرف زمانه، ويبكى في تصانيفه على حرمانه، ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب، ولا دبجه ضمن خطاب وهذا من العجب العجاب"[٤].

١- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص ١٩٢٥.

٢- المرجع السابق، ص ١٩٢٤.

٣- المرجع السابق، ص ١٩٢٤.

٤- المرجع السابق، ص ١٩٢٤.

إذاً لم يكن التوحيدى مزودا بتلك الأخلاق الفاضلة التي تعدل علمه وأدبه "ولو أنه كان كذلك لصار نادرة فى دهره، ومثلا عاليا فى عصره، وبعد عصره لكن الرجل كان فى أخلاقه بشرا عاديا"[١].

ويتفق الدكتور الشكعة مع ما قاله ياقوت الحموي عن أبى حيان وما ذكره من محاسن ومن مثالب، ويفسر ذلك فيقول: "على الرغم من وفرة علمه، وحدة ذكائه كان محروما من أن ينال قدرا من الاحترام يليق بمن كان له مثل حظه من العلم والمعرفة"[٢].

والباحث يميل إلى الاطمئنان إلى هذه الأحكام خاصة أن مطالعة أعماله التي بين أيدينا تظهر لنا مدى الثقافة التي كان يتمتع بها التوحيدي وصفاته التي كان معروفا بها، لكن الباحث يلتمس لأبى حيان التوحيدى العذر كله، فهو رجل نشأ فى هجير الفاقة والبؤس، وسط مجتمع نعم بالثراء والغنى، وتقدير الأدباء والعلماء، اضطرته الحياة إلى أن يأكل حشيش الأرض، فلا عجب فى أن يتشكى صرف زمانه، وأن يحقد على الآخرين.وإن الإنسان ليرثى لشكواه وهو ذلك الرجل الموسوعي الذى حظى من كل العلوم بطرف إلا أن "أحداث دهره قهرته على المشي فوق تلك الأشواك: أشواك الملق والمداهنة والرياء، فمشى مجروح القلب، مقتول النفس، مطعون الوجدان، وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان مما يضرم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعورين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف"[٣].

وعلى الرغم من هذا كله فإن من الدارسين من يرى أن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والأحياء فيقول الدكتور زكى مبارك: "ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه"[٤].

١- أبو حيان التوحيدى، أحمد الحوفي، ص ٢٤.

٢- معالم الحضارة الإسلامية، ص ١٨٢.

٣- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د/ زكي مبارك ص١٦٤.

٤- المرجع السابق، ص ١٦٤.

وأظن أنها عبارة على سبيل المبالغة فى الإعجاب بكتابة أبى حيان وإجادته فى هذه الظروف، ولا ينفى هذا إجادته بصفة عامة.

إنه مما لا شك فيه أن أبا حيان قدم لنا الكثير من الإيجابيات، فهو الذي سجل لنا الثقافة العربية فى شتى فروعها وفى أزهى عصورها بحيث اعتبرناه مرآة ناصعة لثقافة عصره، وهو في هذا ليس بالعابد إنما هو أديب مفكر له هناته وله مميزاته، وهو مع هذا أيضا كان بارعا مجيدا فهو "أبرع كتاب العربية وأملكهم لزمامها"[١].

وعلى الرغم من أنه كان جاحظي المنهج والمسلك كما يذكر ياقوت فإنه تفوق على الجاحظ فيذكر الأستاذ أحمد أمين أنه فضل على الجاحظ فى ناحيتين: جزالة اللفظ، وسعة العلم وفضل الجاحظ على أبى حيان فى طرافة التصوير وجمال العرض "فالجاحظ كان مسجل القرن الثاني وفى القرن الثاني نشأت العلوم وأبو حيان مسجل القرن الرابع، وقد نضجت العلوم وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج"[٢]. فقد نهل أبو حيان من معارف العالم الإسلامي وأفاد من جهود الحضارة الإسلامية ما لم يتح للجاحظ وأمثاله البارعين.

وعن عقيدة التوحيدى وفكره دار خلاف كبير بين القدماء فمنهم من اتهمه في عقيدته فرماه بالزيغ والإلحاد والفسق والإفساد، ومنهم من برأه وانتصف له من هذه التهمة الخطيرة التي تأتى على مكانته الأدبية والعلمية وتلقى على إنتاجه ظلالا من الشك.إن آراء المفكرين وعقائدهم تؤخذ من خلال أعمالهم وكتاباتهم الشخصية لا من خلال ما يكتب عنهم فى ظل جهل بالأبعاد المذهبية والعقائدية لأصحاب هذه الكتابات فلا يكفى أن يطلق أحد الموتورين إشاعة ما، وتتردد بعض الوقت إلى أن يقدم أحدهم على تدوينها فتبدو كأنها حقيقة.

بدأ الحديث عن عقيدة التوحيدى باتهام ابن فارس المتوفى فى القرن الرابع الهجري له فى عقيدته فقال فى كتاب "الفريدة والخريدة": كان أبو حيان كاذبا قليل الدين

١- أبو حيان التوحيدي، اللغة والعجز عن التعبير، د/ وداد القاضي، مجلة فصول، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، شتاء ١٩٩٦، مجلد ١٤، عدد ٤ ص ٥٧.

٢- أبو حيان التوحيدى، أحمد الحوفي، ص ٢٤.

والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، وتعرض لأمور جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل"[١] وتبعه ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ حيث قال: "زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، والتوحيدي، وأبو العلاء وشرهم على الإسلام التوحيدى لأنهما صرحا وهو مجمج ولم يصرح"[٢]، وفى نفس هذا الاتجاه سار الحافظ الذهبي ت٧٤٨هـ: "الضال الملحد أبو حيان على بن محمد بن العباس"[٣].

وعلى النقيض من هذه الفئة من العلماء تجد من أنصف أبا حيان ودفع عنه تلك التهمة فى مقدمتهم ابن النجار الذي كان معاصرا لابن الجوزي لكنه خالفه الرأي فقال عن التوحيدي: "كان فقيرا صابرا متدينا، قال وكان صحيح العقيدة"[٤] أما ياقوت الحموي فقال عنه:"صوفي السمت والهيئة وكان يَتَأَلَّه"[٥]. وقال عنه تاج الدين عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي، ت ٧٧١هـ:"لم يثبت عندي من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس مزدريا بأهل عصره، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل"[٦].

تلك هي أراء القدماء فى عقيدة أبى حيان التوحيدى تحمل الكثير من المتناقضات التي يجب علينا تفسيرها، وذلك من خلال الوعي بدور العامل المذهبي لأصحاب هذه الآراء "ودور التكوين الفكري والتجربة الحياتية لكل منهم، وهذا كفيل بحل ألغاز هذه المتناقضات"[٧].

فابن فارس الذى كان معاصرا لأبى حيان والذي بدأ سلسلة الاتهام له كان أستاذا لابن عباد وابن العميد اللذين هجاهما أبو حيان، كما أن أبا حيان ذم ابن

١- سير أعلام النبلاء، ص ١١٩.

٢- بغية الوعاة، ص ١٩٠.

٣- سير أعلام النبلاء، ص ١١٩.

٤- المرجع السابق، ص ١٢١.

٥- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص ١٩٢٥.

٦- طبقات الشافعية، ص ٢٥٦.

٧- أبو حيان التوحيدي، محمد عمارة، ص ٨.

فارس ذما شديدا كعادته فى ثلب الناس دون تفرقة فوصف – ابن فارس بالرعونة والمكر والخسة والكذب، والغيبة"[١] ومن المرجح أن ابن فارس أراد أن يثأر منه ويشوه سمعته فالصق به تهمة الزندقة.

أما ابن الجوزي فقد كان حنبليا من أهل الأثر الذين يضيقون بأهل الرأي، وكان التوحيدي معدودا من بينهم.

ونجد العجب إذا طالعنا سبب اتهام ابن الجوزي للتوحيدي بالزندقة يقول: "إنه مجمج ولم يصرح" ويرد عليه حسن السندوبى ردا بليغا فيقول:"أرأيت كيف يتعرض ابن الجوزي لما لم يجزه العقل ولا الدين... فتسرب فى طوايا الضمائر وتولج خفايا النفوس واستخراج من سويداوات الأفئدة ما أباح له الحكم بأن أبا حيان كان أشد على الإسلام من سواه"[٢] فما دام أبو حيان لم يصرح بفسق أو كفر فكيف حكم عليه ابن الجوزي، وكيف وصفه بالزنديق؟

وقد دفع السبكي عن التوحيدي اتهام الذهبي له بالزندقة وبين السبب فى ذلك فقال:"الحامل للذهبي على الوقعية فى التوحيدى هو ما يبطنه – يعنى الذهبي – من بغض للصوفية"[٣].

أما ابن النجار فقد كان شافعيا كالتوحيدي، ولم يكن طرفا فى نزاعات المتكلمين فجاء حكمة على التوحيدى معتدلا منصفا، وكذلك السبكى الذى كان شافعيا أيضا وصنف "طبقات الشافعية" وقد عانى من تعصب شيوخ عصره فقرأ التوحيدي وكتب عنه كتابة الخبير"[٤] وانتصر له ورد تهمة الزندقة والإلحاد.

والحقيقة أن كلام أبى حيان التوحيدي ينقض دعوى خصومه فرميه بالزندقة وقذفه بالإلحاد أمرٌ يصعب تصديقه "فليس بين أيدينا من كتبه التي نجت من الإحراق إلا ما يثبت شدة تدينه، وعمق إيمانه، وتسبيح الله بعبارات بلغت من الرصانة

١- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ت أحمد أمين – أحمد الزين بيروت مكتبة الحياة د. ت جـ ٣ ص: ١١٥.

٢- المقابسات، ت/ حسن السندوبي، ص ١٦.

٣- طبقات الشافعية، ص ٢٥٢.

٤- أبو حيان التوحيدي، محمد عمارة، ص ٨.

والإشراق بحيث تصلح لأن تكون أوراد عبادة"[١]. وإكمالا لمسلسل الخلاف حول أبى حيان التوحيدى نجد بعض الدارسين المحدثين يختلفون حول تصوف التوحيدى فالدكتور يوسف زيدان نشر مقالا في مجلة "الهلال"[٢] وأردفه بمقال آخر فى مجلة "فصول"[٣] قطع فيهما أية علاقة للتوحيدي بالتصوف بل ووصل به الأمر إلى إنكار نسبة كتاب "الإشارات الإلهية" للتوحيدي مستندا في ذلك إلى عدة أمور هي[٤]:

١- من شروط التصوف الزهد ولم يكن التوحيدى زاهدا، وإن مطالعة سيرته تنفى أية علاقة له بالتصوف.

٢- الشيخ شرط من شروط التصوف، وللصوفية كلام مطول فى ضرورة صحبه المريد لشيخ يأخذ بيده فى زمن البداية، لأنه سلك طريق الحق، وعرف المخاوف والمهالك والحدود فتولى تربية المريدين ولم يكن للتوحيدي شيخ في التصوف.

٣- من الأمرين السابقين ينطلق الدكتور يوسف زيدان لينكر نسبة كتاب "الإشارات الإلهية" لأبى حيان ويذكر أسبابه أيضا فيقول:

أ- إن بنية الكتاب العامة تخالف أعمال التوحيدى.

ب - الإشارات كتاب كتبه مؤلفه بعد أن بلغ السبعين فإن كان التوحيدى كتبه في حدود سنة ٣٨٠ هـ، وهو ما لا يتفق فقد كان التوحيدى فى هذه الفترة وبعدها يحرق كتبه ويرسل رسالته إلى الوزير أبى سهل سنة ٤٠٠ هـ حاقدا مغيظا حانقا على الناس، وكتاب الإشارات ملؤه الإيمان والصدق".

جـ- صاحب الكتاب شاعر مطبوع ولم يكن التوحيدى شاعرا.

د - لا توجد أية إشارة إلى هذا الكتاب فى كتب التوحيدى الأخرى.

١- معالم الحضارة الإسلامية، ص ١٨٢.

٢- التوحيدي والصوفية، يوسف زيدان، مجلة الهلال، القاهرة، نوفمبر ١٩٩٥، ص ٩٠.

٣-هل كان التوحيدي صوفيا أم فيلسوفا، يوسف زيدان، مجلة فصول، القاهرة، قصور الثقافة، العدد الأول، مجلد ١٥، ربيع ١٩٩٦م.

٤- المرجع السابق، ص ٢٤.

وقد وافق الدكتور محمد عمارة الدكتور يوسف زيدان فيما ذهب إليه وبرر ذلك:"بدنيوية منهج التوحيدى فى الحياة"[١] وسيرته وأخلاقه التي وصفه بها ياقوت الحموي، والتي ذكرها عنه الشيخ أبو الوفاء المهندس، والتي تنفى أن يكون التوحيدى أحد أعلام الصوفية.

الواقع أن إشكالية انتساب التوحيدي للتصوف أحدث ما واجهه من إشكاليات انفرد بذلك الدكتور يوسف زيدان وتبعه في ذلك الدكتور محمد عمارة، وعلى كثرة من تناول أبا حيان فى القديم، والحديث لم نجد منهم من يتشك فى نسبة أبى حيان للتصوف بداية من ياقوت الحموي الذى يقول عنه:"صوفي السمت والهيئة"[٢] و لم يخالفه أحد فى ذلك حتى أن السبكى (ت ٧٧١هـ) يعلل بغض "الذهبي ت٧٤٨هـ) للتوحيدي ووقيعته فيه "ما يبطنه من بغض للصوفية"[٣]، ويصف السبكى أبا حيان بـ "المتكلم الصوفي"[٤] ووصفه السيوطى بقوله شيخ الصوفية"[٥] وقال عنه الذهبي:"البغدادي الصوفي"[٦] وعلى كثرة من تناول أبا حيان التوحيدي فى العصر الحديث لا نجد منهم من يتشكك فى نسبة أبي حيان للتصوف[٧].

أما عن الأدلة التي ساقها الدكتور يوسف زيدان ليقطع الصلة بين التوحيدي والتصوف فأولها أن التوحيدي لم يكن زاهدا والزهد من شروط التصوف، وهو إذ يحكم هذا الحكم ينبغي أن يكون على دراية تامة بكامل حياة أبي حيان التوحيدي، ومن المعروف أن هناك فترة مدتها أربع عشرة سنة فى حياة التوحيدي مجهولة بالنسبة لنا وهي الفترة من ٤٠٠ هـ إلى ٤١٤ هـ لم يعثر له فى هذه الفترة على أثر فأين قضاها؟ متنقلا على الأبواب أم مخالطا للصوفية والغرباء أم حول بيت الله الحرام وهذه

١- أبو حيان التوحيدى، د. محمد عمارة، ص ٢٤.

٢- معجم الأدباء، ص ١٩٢٥.

٣- طبقات الشافعية، ص٢٢٨.

٤- المرجع السابق، ص ٢٢٨.

٥- بغية الوعاة، ص ١٩٠.

٦- سير أعلام النبلاء، ص١١٩

٧- أبو حيان التوحيدي ببلوجرافية مختارة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٥.

الفترة يرجح أن يكون التوحيدى قد خلا فيها إلى حياته الباطنية وأكمل فيها "إشاراته الإلهية" وهو ما ذكره عبد الرازق محيى الدين فى كتابه عن أبى حيان حيث قال:

"زمن تأليفه الذى لا شك فيه أنه واقع في العهد الثاني من حياته بل لعله في الذروة الأخيرة من عهده الثاني"[١].

وشبيه بالقول السابق قول الدكتور شوقي ضيف – رحمه الله–: "أهم كتاب أخرجه بآخرة من حياته كتاب "الإشارات الإلهية"[٢].

وقال الدكتور عاطف العراقى:"وقد يكون اتجاهه إلى الحياة الصوفية من حيث هي فكر قد جاء فى مرحلة متأخرة من حياته"[٣].

والحقيقة أن ميولا كثيرة كانت لدى التوحيدى لكى يسلك هذا المسلك الصوفي منذ بداية حياته، فيحكى أبو حيان عن نفسه أنه حج في رفقة من إخوانه المتصوفة سنة ٣٥٤هـ، ويصف ما احتملوا في عودتهم إلى بغداد من مشقات"[٤] وكان يتزيا بزى الصوفية وله طباعهم وصفاتهم"[٥]. وقد عابه أبو الوفاء المهندس بمخالطة الصوفية"[٦].

وأما حجة الدكتور يوسف زيدان الثانية والتي ذكر فيها أن التوحيدى لم يكن له شيخ فى التصوف فقد ذكر السبكى أن التوحيدى "أخذ عن جعفر الخلدي التصوف"[٧] وهو ما ينقض حجة الدكتور يوسف زيدان، ولكن بمراجعة المصادر القريبة من أبى حيان التوحيدى والتي أرخت للتصوف وصنفت أعلامه لا نجد فيها ذكرا لأبى حيان التوحيدى من ذلك طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى

١- أبو حيان التوحيدى عبد الرازق محيى الدين، القاهرة، الخانجى، ١٩٤٩، ص٢٣٥٠.

٢- عصر الدول والأمارات شوقى ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ص٤٦٠.

٣- مفهوم الإنسان عند أبى حيان د/ عاطف العراقى، فصول، مجلد ١٥، العدد الأول، ربيع ١٩٩٦، ص٣٢.

٤- الإمتاع والمؤانسة، ١١٥/٢.

٥- المصدر السابق، ٧/١.

٦- معجم الأدباء، ٥/١٥.

٧- طبقات الشافعية، ص ٢٥٦.

ت٤١٢هـ، وقد أدرج السلمى فى الطبقات أبا جعفر الخلدى فى الطبقة الخامسة حيث قال عنه "بغدادى المنشأ والمولد، صحب الجنيد بن محمد، وعرف بصحبته، وصحب أبا الحسين النورى، ورويما وسمنون، وأبا محمد الحريرى وغيرهم من مشايخ الوقت توفى ببغداد سنة ثمان وأربعين وثلثمائة"[١] ولم يذكر السلمى فى ترجمته للخلدى ما يدل على صلة التوحيدى به.

ومن المصادر القريبة أيضا من التوحيدى ولم يرد فيها ذكر له "الرسالة القشيرية"[٢] لعبد الكريم القشيرى ت٤٦٥هـ ولم يرد فيها أيضا ذكر أو إشارة لأبى حيان التوحيدي.

أما الحجج التي ساقها الدكتور يوسف زيدان لينفى بها نسبة كتاب "الإشارات الإلهية" لأبى حيان التوحيدى وأولها أن الكتاب يخالف أعمال التوحيدى فى البنية العامة، فهذا وإن كان ينطبق على الشكل فإن هناك إرهاصات لدى التوحيدي في كتبه الأخرى عن التصوف "فكم تحدث عن مجالات التصوف فى العديد من كتبه"[٣]، ولا تخفى علينا الصلة الوثيقة بين الإنسان الذي كان ديدن التوحيدى وشغله الشاغل وبين التصوف.فإن للتوحيدي بعض العبارات التي ينبه فيها على أن العبرة بالباطن وليست العبرة بالظاهر والمهم هو الإنسان في داخله وليس فى ظاهره"[٤].

وبالنسبة لتاريخ تأليف الكتاب، والذي قال عنه التوحيدى: إنه ألفه بعد السبعين أى في حدود سنه ٣٨٠ هـ، وهو ما لا يتفق وإحراقه لكتبه، ورسالته التي تمتلئ باليأس، والحقد، والكراهية، وهو كتاب يفيض بالزهد والصفاء والنقاء.

١- طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى، تحقيق: نور الدين شريبه، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٦٩، ص٤٣٤.

٢- كتاب الرسالة القشيرية فى علم التصوف عبد الكريم القشيري، تحقيق: معروف زريق – على عبد الحميد بلطجي، ط٢، بيروت، وادي الجبل، ١٩٩٠.

٣- مفهوم الإنسان عند أبي حيان د.عاطف العراقي، مجلة فصول – القاهرة: هيئة قصور الثقافة-ع١-مج١٥-ربيع ١٩٩٦-ص٢٨.

٤- مفهوم الإنسان عند أبى حيان، ص٢٨.

فالمتتبع لأعمال أبي حيان التوحيدى يلاحظ أنه كان يكتب أعماله فى فترات طويلة من الزمن وعلى أجزاء متفرقة، وهذا ما يؤيده الدكتور: شوقى ضيف: "الإشارات الإلهية" مثلها مثل كثير من كتبه لم تؤلف فى عام واحد ولا فى أعوام قليلة"[١].

وأما قول الدكتور يوسف زيدان إن صاحب الإشارات شاعر مطبوع ولم يكن أبو حيان التوحيدى شاعرا مطبوعا فهو أمر لا أرجحه فى نفى نسبة الكتاب للتوحيدي، لأن أغلب الشعر فى كتاب الإشارات الإلهية "منسوب لأصحابه" وليس لصاحب الكتاب فهى أبيات من قبيل الشواهد، وكان التوحيدي راويا للشعر والأخبار.

وإذا كان الدكتور يوسف زيدان يحتج أيضا بكون الكتاب لم يذكر، ولم يشر إليه فى كتب التوحيدى ففى ظن الباحث أنه أمر طبيعى لأنه من الوجهة التاريخية هو آخر أعماله فكيف يذكر فيما سبقه من أعمال؟ وكان التوحيدى مع هذا قليلا ما يشير إلى كتبه فى مؤلفاته.

وما يؤيد عندى نسبة الكتاب للتوحيدي هو أن الكتاب مذكور في كتب التراجم ومنسوب لأبى حيان التوحيدى قال ياقوت الحموي للتوحيدي "الإشارات الإلهية" جزءان"[٢] وذكر الذهبي: يذكر أن له كتابا فى تصوف الحكماء"[٣]، أظنه يعنى به "الإشارات الإلهية" وقال السبكى: "ألف الإشارات"[٤] ونعرض الآن كلام أحد المعنيين بتحقيق كتاب "الإشارات الإلهية" هو الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى يقول: "ليس ثمة شك لدينا فى أن كتاب (الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية هو لأبي حيان التوحيدي وفى أن النسخة التي بين أيدينا وننشرها ههنا هي بعينها كتاب الإشارات الإلهية للتوحيدي"[٥].

١- عصر الدول والإمارات، ص ٤٥٩٠

٢- معجم الأدباء، ص ١٩٢٥.

٣- سير أعلام النبلاء، ص١٢٠.

٤- طبقات الشافعية، ص ٢٥٦.

٥- الإشارات الإلهية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ص ٢٩.

إن نفى الدكتور يوسف زيدان نسبة الإشارات الإلهية للتوحيدي لا يؤبه له فى سياق المنهج النقدي للنصوص، وهو منهج يعول على شخصية التوحيدي الأسلوبية، ومدى انعكاسها على الإشارات، وعلى غيره من كتب التوحيدي كالإمتاع، والمقابسات، والمثالب وغيرها إذ تبدو طبيعة الأسلوب من الوجهة البلاغية، والوجهة الفيلولوجية واحدة ودالة على أن الإشارات للتوحيدي الذي يعسر تقليد أسلوبه.

إذن نستطيع أن نقول إن أبا حيان التوحيدي وإن لم يكن صوفيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فيكفيه أنه تشبه بهم وإن لم يكن مثلهم فى الأحوال والمقامات والمواجيد والأذواق وعلوم الحقائق وتجريد التوحيد، وإنه صحب بعضهم غير أن الصوفية الذين عاصرهم التوحيدي ممن ألفوا فى التراجم والطبقات لم يترجموا له ولم يدرجوه فى طبقة، ولم يرد له ذكر عند أبي عبد الرحمن السلمي فى طبقاته، وكان التوحيدي معاصرا له، وكذا لم يذكره أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة وهو من صوفية القرن الرابع الهجري ولم يشر إليه أصحاب الطبقات من المتأخرين من أمثال الشعراني ولعل السبب فى ذلك أنه كان بحكم صحبته للمناطقة ولشراح الفلسفة من أتباع الأفلوطينية الحديثة، من أمثال أبي الحسن العامري، ومسكويه، ومتى بن يونس، وأبي سليمان السجستاني وأضرابهم من المشتغلين بالحكمة وبعلوم الربوبية على مذاهب أفلوطين، وأبرقلس، أقرب ما يكون إلى الفلسفة منه إلى التصوف.

وإذا كان الدكتور يوسف زيدان قد رتب الأدلة ليدلل على أن كتاب "الإشارات الإلهية" لم يكن من إنتاج التوحيدي وقد قدمنا ما يدحض هذه الأدلة، وإذا كان هدفه من ذلك هو بتر العلاقة بين أبي حيان والتصوف، فإن هذا الكتاب ليس الكتاب الوحيد لأبي حيان فى التصوف بل له أكثر من مؤلف فى هذا المجال من ذلك ما ذكره ياقوت الحموي من أن من تصانيفه "الرسالة فى أخبار الصوفية، الرسالة الصوفية، الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي"[١].

١- معجم الأدباء، ص ١٩٢٥.

المبحث الثاني

" كتاب الإشارات الإلهية "

المحتوى – البناء – الأسلوب

يمثل كتاب "الإشارات الإلهية" لأبي حيان التوحيدي حلقة مميزة فى السلسة الذهبية الإبداعية للأدب العربي عبر العصور، فهو أحد قمم الإبداع النثري العربي الذي تخطى فيه التوحيدي الأساليب التقليدية ليبدع لنا أسلوبه الخاص: "الذي وحد فيه بين ظاهر النثر وباطنه وبين الأساليب التي تعارف عليها القوم، والمعاني التي لم يطرحها أحد بالطريقة التي يألفها الكافة"[١].

أما زمن تأليف الكتاب فقد خلا الكتاب من أية إشارة يعرف بها زمن تأليفه كأسماء الأعلام، والحوادث التاريخية والذي اتفق عليه كل دارسي أبي حيان التوحيدي أنه ألفه فى فترة متأخرة من عمره، وأنه ألف القسم الأكبر من هذا الكتاب فى دور ما يشبه التوبة[٢].

تقول الدكتورة وداد القاضى: فإن الدارس قد يقدر أنه كتب فى مراحل متفاوتة غير أن الشيء المؤكد أن بعض الرسائل كتب بعد سنة ٣٨١هـ"[٣].

وتستند إلى قول أبى حيان نفسه "أنا نطقت بهذه الألغاز بعد سبعين سنة".

والواقع أن كتاب "الإشارات الإلهية" لأبى حيان التوحيدى لا توجد أية إشارة إليه أو ذكر له فى كتبه الأخرى، كما أن الكتاب يخلو من حملات الحقد والكراهية والثلب التي أشتهر بها التوحيدى فى كتبه الأخرى ويمثل هذا الكتاب قمة النضج الأسلوبي لصاحبه، وكلها أمور تدعونا إلى ترجيح الرأي القائل بتأخر زمن إتمام الكتاب.

لقد كان من عادة التوحيدى أن يكتب كتبه ليقدمها لأشخاص بأعينهم رغبة فى العطاء، ورجاء للنفوذ والسلطة فقد كتب من قبل "الإمتاع والمؤانسة" لصديقه أبى الوفاء المهندس، وكتب "محاضرات العلماء" للوزير أبى القاسم الدلجى وهو "يزعم أنه حين كتب "أخلاق الوزيرين" إنما كان استجابة لشخص دفعه إلى ذلك"[٤].

١- خلاصة التوحيدى، جمال الغيطاني، ص ١٣.

٢- الإشارات الإلهية، تحقيق د / عبد الرحمن بدوي، ص ٣٥.

٣-الإشارات الإلهية، تحقيق د/ وداد القاضي ص٩. ٤

٤- المصدر السابق، ص١٠.

ولكن كتاب "الإشارات الإلهية" لم يذكر عنه التوحيدى أنه ألفه لشخص معين تقول الدكتورة وداد القاضى: "ليس من المستبعد أن يكون أبو حيان التوحيدى قد كتب "الإشارات الإلهية" تحت ظل الحافز المادى، ولكن ليس من السهل أن يعين الشخص الذى ألف هذا الكتاب من أجله"[١].

وأرجح إنكار هذا الأمر وذلك لعدة أسباب:

أولا: لا يوجد دليل واحد على صحة هذا الكلام.

ثانيا: الدكتورة وداد القاضى نفسها تقول بعد ذلك: إن أبا حيان فى كتابه يخاطب نفسه ويخاطب "الإنسان عامة"[٢] وهو ما يناقض أن يكون قد كتبه وهدفه الحافز المادى.

ثالثا: ربما يكون ما حمل الدكتورة وداد القاضى على هذا الرأي هو العادة عند التوحيدى فى تقديم كتبه لأشخاص بأعينهم.

رابعا: ما يدفعنا أيضا إلى عدم الميل إلى هذا الرأي هو موضوع الكتاب وأسلوبه والهدف منه، وكلها أمور تنفى أن يكون الباعث للتأليف المال والسلطان.

أما موضوع الكتاب فهو مادة صوفية يتوجه فيها التوحيدى بأدعيته ومناجياته الحارة إلى خالقه فى رسائل متتالية، ومواعظ متوالية"[٣].

فالكتاب مؤلف من أربع وخمسين رسالة فى المواعظ والإشارات، والأدعية والابتهالات لرب الكون منبع كل القيم الجميلة، وهذه الرسائل تبدأ الواحدة منها بدعاء طويل، وبعده موعظة وإرشاد يتوجه بهما إلى شخص ما، وحول درجة الواقعية فى كتاب "الإشارات الإلهية" تقول الدكتورة وداد القاضى: "هل هناك مريد من جهة وشيخ من جهة أخرى فى واقع الحال يبدو لى الموقف من أوله إلى أخره ذاتيا من ناحية وغيريا من ناحية أخرى فهذا الصاحب الذى يدعوه أبو حيان التوحيدى هو

١- الإشارات الإلهية، تحقيق د/ وداد القاضي ، ص١١.

٢-المصدر السابق، ص١٧.

٣- هل كان التوحيدي صوفياً أم فيلسوفاً -د.يوسف زيدان-مجلة فصول، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة - ع١-مج١٥ -ربيع ١٩٩٦م ص ١٠٤.

الإنسان عامة، وهو أيضا ذلك الشق من أبى حيان نفسه الذى لم يستطع أن يرتفع بصاحبه عن الدنيا والأهواء، ليجعله دينا فاضلا وصافيا فى علاقته مع ربه"[١].

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى عن الشخص الذى يخاطبه التوحيدى: "من العسير أن نتعرفه بيقين وأغلب الظن أنه شخص خيالى"[٢].

وأميل إلى موافقة هذا القول، وأرجح أن ما دفع الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتورة وداد القاضى إلى هذا الكلام أحاطتهما بتاريخ التوحيدى، واتجاهاته، ومجالسه، فأنكرا عليه أن يجلس مجلس الشيخ الصوفي أو حتى مجلس المريد، وأن يوجه نصائحه بالفعل لطلابه ومريديه، ومالا لأن يكون الموقف كله خياليا.

وهو ما يتفق مع القول بأن التوحيدى لم يكن صوفيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولكنه أحب مسلكهم، ثم تشبه بهم حتى سبقهم وتميز عليهم.

أما عن أسلوب الكتاب فالطبيعى أن يؤثر موضوع الكتاب على أسلوب صاحبه، والموضوع هنا خصب "يهبُ الأسلوب بطبعه أجنحة وردية ترف فى نور الإيمان المتقد، فأسلوبه مسجوع في فقرات قصار يشبه الشعر المنثور، ولعل أبا حيان هو الذى استطاع أن يُحل النثر محل الشعر فى التصوف والابتهال"[٣].

لقد كان أبو حيان خبيرا فى استخدام اللغة، بارعا في اختيار الكلمات إنه يقول: "إن الكلمة تطلب مقرها الموافق لها فإن صادفت سكنت، وإن لم تصادف جالت فى آفاق النفس دائبة إلى أن تجد مكانها اللائق بها"[٤].

فكلمات التوحيدي تبحث عن الموقع الملائم لها تستقر فيه لتصنع لنا ذلك الإبداع الفنى،والذي لم يبلغ فى كتاب من كتب التوحيدي الأخرى ما بلغه فى هذا الكتاب نعنى:"الإشارات الإلهية" سموا وحرارة وموسيقى.

١- الإشارات الإلهية، د/ وداد القاضى، ص ١٧.

٢-الإشارات الإلهية، د/ عبد الرحمن بدوى، ص٣٣

٣- المصدر السابق، ص٣٣.

٤- الإشارات الإلهية، د/ وداد القاضى، ص ١٠١.

يحوى كتاب "الإشارات الإلهية" قدرا من الشواهد القرآنية، والأبيات الشعرية المنسوب أغلبها لأصحابها "والمصطلحات الصوفية التي انسابت مع العبارة لتؤلف هذا النص الذى يعرف المشتغلون باللغة الصوفية كم هي بديعة الصياغة دافئة الإيقاع"[١].

فالكتاب غنى بما فيه من منهج فى المناجاة لا نكاد نجد له نظيرا قبل التوحيدى وبهذا يمكن ان يعد رائد نوعه، والنموذج الأول لكتب المناجاة التي سنراها بعد ذلك فى الأدب الصوفي"[٢].

وهذا ما ستحاول الدراسة بحثه وكشفه

١- الإشارات الإلهية، د/ وداد القاضى ، ص ١٠٥.

٢- الإشارات الإلهية، عبد الرحمن بدوى، ص ٣٨.